الكلمة وأثرها على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم

د. عواد عبدالرحمن صياح الرويلي
الأستاذ المساعد في جامعة الجوف

مقدمة:

الحمد لله رب الفضل العظيم، الذي خلقنا ورزقنا العلم والتعليم، وأعطانا فكان في عطائه سخيًّا كريم، ونسأله – تعالى – أن يهدنا صراطه المستقيم، وصلوات ربي وسلامه على خاتم النبيين وخاتم المرسلين محمد بن عبدالله وآله وصحبه أجمعين ومنْ تبعه بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعد: إن للكلمة مكانة عظيمة عند الله – سبحانه وتعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم –، وقد حثنا الدين الحنيف إلى الاهتمام بها، والتفكر جيدًا قبل نطقها، لأنها إذا خرجت من اللسان كانت للفرد أو عليه، وتسجل في صحيفته، فبها قد يدخل الجنة ثوابًا من عند الله، وبها قد يساق إلى جهنم وبئس المصير، ولما رأيت في أكثر من موضع قرآني تكرار الحث على ضرورة الانتباه والتفكر في الكلمة قبل النطق بها، تساءلت عن أهمية الكلمة وعن أنواعها، وأردت معرفة طبيعة ودرجة الاهتمام بها، وحس مكانتها عند المشرع، وفوائدها وأثرها على الفرد والمجتمع، فكانت مشكلة البحث.

مشكلة البحث:

تنبع من أهمية الكلمة لدى المشرع، وتكرار خطورتها في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ودورها في تنشئة الفرد تنشئة إسلامية سليمة، وأثرها عليه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه.

أهمية البحث:

وتأتي من تأكيد المشرع على أهمية الكلمة وأثرها من خلال تكرارها في أكثر من موضع في الذكر الحكيم من ناحية، وحرص السنة النبوية المطهرة عليها، الأمر الذي تحتم ضرورة معرفة هذه الأهمية بالنسبة للفرد وللمجتمع، وكذا أثر الكلمة على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم بالأخص.

أسئلة الدراسة: وتمثلت في:

ـ ما مفهوم الكلمة؟ وأنواعها؟

ـ لماذا اهتم المشرع بالكلمة اهتمامًا عظيمًا؟

ـ ما أثر الكلمة على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم؟

أهداف البحث: تمثلت في:

ـ معرفة أهمية الكلمة لدى المشرع كما ورد في القرآن الكريم.

ـ اكتشاف مكانة الكلمة وخصائصها في ضوء القرآن الكريم.

ـ تحديد أثر الكلمة على الفرد والمجتمع في ضوء آيات الذكر الحكيم.

الدراسات السابقة:

من الدراسات السابقة والتي طالعتها وكانت تمس موضوع بحثي هذا ورقة بحثية بعنوان "الكلمة الطيبة وأثرها في النفوس" (١) للشيخ أحمد أبو عيد، والتي تناول فيها الكلمة الطيبة تحديدًا من حيث التعريف والأهمية وكذلك الأثر مع ضرب أمثلة لها، وكذلك بحث بعنوان "تطبيقات تربوية من القرآن الكريم وأثرها في تربية وبناء الشخصية المسلمة" (٢) لإيمان قطب تناولت فيه لاهتمام بتدبر القرآن الكريم، والتعرف على الآثار الإيمانية التي تعود على الفرد المسلم وتطبيقها في أمور حياته علميا وعقليا وأخلاقيا وتربوياً، تعرف الجوانب التربوية في تربية وبناء الشخصية المسلمة، وكذا مقال بحثي بعنوان "الكلمة" (٣)

(١) أبو عيد، أحمد: " الكلمة الطيبة وأثرها في النفوس " مقالة بحثية منشورة على موقع الألوكة الالكتروني، بتاريخ ١٤٢٣/٢/٢٣هـ، على الرابط: https: //www. alukah. net/sharia/0/95485/.

(٢) قطب، إيمان محمد مبروك: " تطبيقات تربوية من القرآن الكريم وأثرها في تربية وبناء الشخصية المسلمة"، مجلة مجمع جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ٢٠١٦م، ع ١٥.

(٣) حجايا، عطا الله: " الكلمة "، مقال بحثي منشور بمجلة (أفكار)، وزارة الثقافة الأردنية، الأردن، ٢٠١٤م، ع ٣٠٨.

لعطا الله حجايا وأوضح المقال أن بين رجفة القلم بيد الكاتب ورعشة السوط بيد الجلاد علاقة متلازمة، فما ارتفعت بأحدهما يد حتى تنخفض الأخرى بتواتر مطرد منذ أن كانت الكلمة تضيء مشعلاً، ويطفىء السوط سراجاً.

منهج البحث:

استعنت بالله تعالى في هذا البحث مستخدمًا المنهج الوصفي، كمنهج بحثي من مناهج البحث العلمي، ورأيته الأنسب لهذا البحث لملائمة أدواته لمشكلة البحث، كما أنني استخدمت المنهج الاستقرائي، لملائمته لما أنشد إيجاده في مراحل البحث، التي سأتناولها عبر المحاور السابقة، سعيًا للإجابة على أسئلة البحث، ووصولًا لتحقيق البحث غايته وأهدافه.

نتائج البحث وتوصياته: وختامًا، أقف على نتائج البحث، وما آلت إليه دراستي بعد تحقيق أهدافها كما هو مبين فيها، حيث تمت الإجابة على أسئلة البحث، وكشف محاوره عن تحقيق أهدافه، وبيان ما مكنًّا منه الله – جل وعلا – في هذه الفترة موضوع الدراسة، ومنها خرجت بتوصياتي - سبحانه - له الفضل والمنة.

خطة البحث

المبحث الأول: مفهوم الكلمة.

المطلب الأول: مفهوم الكلمة لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: مفهوم الكلمة الإجرائي في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: أنواع الكلمة وأهميتها في القرآن الكريم.

المطلب الأول: أنواع الكلمة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: أهمية الكلمة في القرآن الكريم وخصائصها.

المبحث الثالث: أثر الكلمة على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم.

المطلب الأول: أثر الكلمة الطيبة على الفرد والمجتمع في ضوء الذكر الحكيم.

المطلب الثاني: أثر الكلمة الخبيثة على الفرد والمجتمع في ضوء الذكر الحكيم.

المبحث الأول: مفهوم الكلمة.

المطلب الأول: مفهوم الكلمة لغة واصطلاحًا:

أولًا: المقصود بالكلمة لغةً:

جمع: كَلِمٌ، كَلِمَاتٌ. [ك ل م]: اللفظة، أي مجموعة من الأحرف الهجائيَة مركبة تفيد معنى، وهي:

١ - اسم يدل على موصوف: - رَجُلٌ، أسد، أو صِفَةٌ: - أَحْمَرُ، مُفِيدٌ.
٢ - فِعْلٌ يدل على حالة أو حدث: كَتَبَتْ، أَكْتُبُ، أُكْتُبْ.
٣- حَرْفٌ: - هو ما يدل معناه بإضافته إلى الفعل أو الاسم: لا، هل، لم.
ـــ ويُقال شجاع بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة: - أي بكل ما تحمله هذه اللفظة من معنى.

وكلمة الله: - حكمه وإرادته. {وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا}] التوبة: ٤٠ [

ويطالبون بأن يَكون الشعب هو صاحب الكلمة: - أي مصدر القرار.. وله الكلمة الأخيرة: - له القول الفصل.
وكلمة السر: - الرمز المتفق عليه في ثكنة عسكرية من أجل السماح بدخولها، أي في أمر ما.

وكلمة الشرف: - الوعد، العهد الذي يحترم ويفي به صاحبه.

وألقى كلمة في الجمع العام: - خطبة، خطابًا، حديثًا، رسالة أو مقالة.

وجمع كلمتهم لمواجهة أعداء الأمة: - وحد آراءهم وصفوفهم(٤).

وقال ابن منظور: "والكِلْمَة: لغة تميمية، والكلمة: اللفظة، حجازية، وجمعها كلم، تذكر وتؤنث. يقال: هو الكلم وهي الكلم. التهذيب: والجمع في لغة تميم الكِلَمُ؛ قال رؤبة: لا يَسْمَعُ الرَّكْبُ به رَجْعَ الكِلَمْ" (٥).

<u>ثانيًا: المقصود بالكلمة في الاصطلاح:</u>

الكلمة لفظ يطلق على الخصوص (الكلمة المفردة) ويُطلق على العموم (مجموعة من الكلمات) أو ما نسميه الجملة، وهناك تعريفات عدة للكلمة، نذكر منها:

---

(٤) المعجم الغني: د. عبد الغني أبو العزم – فهرسة وتنسيق فواز زكانة – نسخة الكترونية بتاريخ ربيع ثاني ١٤٣٤ – مادة (ك. ل. م).

(٥) لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت: ٧١١هـ) – دار صادر– بيروت – الطبعة الثالثة١٤١٤ ه – مادة (ك. ل. م).

ـ الكَلْم، وهو الجُرْح، والكِلام: الجراحات، وجمعه كُلُوم، والكُلام: الأرض الغليظة(٦).

ـــ الكَلام: هو القول أو ما كان مكتفيًا بنفسه(٧).

ـــ الكَلْمُ: التأثير المُدْرَك بإحدى الحاستين، الكلام: مُدْرك بحاسة السّمع، والكَلْمُ: مدرك بحاسة البصر(٨).

إذن الكلم هو كل لفظ له معنى في نفسه، وهو كل ما يصدر عن اللسان أيضًا.

المطلب الثاني: مفهوم الكلمة الإجرائي في القرآن الكريم

ورد لفظ (كَلِمْ) بصيغه خمس وسبعين مرة في القرآن الكريم، وقد ورد على خمسة أوجه في القرآن الكريم(٩):

١ - كلام الله العام: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾]النساء: ١٦٤[﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾]البقرة: ٧٥[

٢- القرآن الكريم: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾]التوبة: ٦[﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾]الفتح: ١٥[

٣- كلام الله: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾]الكهف: ١٠٩[

٤- كلام المخلوقين: ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾]مريم: ٢٩[

---

(٦) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ) – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الفكر – ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م - ج٢- ص ٤٢١.

(٧) القاموس المحيط: الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) – تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م - ص ١١٥٥.

(٨) المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) – تحقيق صفوان عدنان الداودي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت – الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ - ص ٤٤١.

(٩) اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن = قاموس القرآن: الدامغاني، الحسين بن محمد الدامغاني - المحقق: عبد العزيز سيد الأهل - دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٨٠ م - ص٤٠٧.

٥- كلام الموتى مما لا يسمعه بنو آدم: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾]المؤمنون: ١٠٠[

فالكلام يقع على الألفاظِ المنظومة وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، كما في قوله - تعالى -: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾]الكهف: ٥[، وفي ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾]البقرة: ٣٧[، قيل: هي ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾]الأعراف: ٢٣[، وفي قوله: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾]البقرة: ١٢٤[، قيل: الأشياء التي امتحن الله إبراهيم بها مَن ذبح ولده والختان وغيرها.

وتسمية عيسى بكلمة في هذه الآية: ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾]النساء: ١٧١[؛ لكونه مَوجودًا بـ "كُنْ"، وقيل: سُمِّيَ به لما خَصَّه الله - تعالى - به في صغره؛ حيث قال وهو في مهده: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾]مريم: ٣٠[، وقوله - تعالى -: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾]الأنعام: ١١٥[، فالكلمة هنا القضية، فكل قضية تسمى كلمة، سواء كان ذلك مقالًا أم فعلًا، ووصفها بالصدق؛ لأنه يقال قول صدق وفعل عدل، أو أنها صدق في الأخبار، عدل في الأحكام.

ومكالمة الله - تعالى - العبدَ على ضربين: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة، فما في الدنيا مثل: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾]الشورى: ٥١[و كلامه في الآخرة، فثواب للمؤمنين، وكرامة لهم تخفى علينا كيفيته، ونبَّه أنه يحرم ذلك على الكافرين.

وفي قوله: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾]النساء: ٤٦[، [المائدة: ١٣] جمع الكلمة، وقيل: إنَّهم كانوا يبدلون الألفاظ ويغيِّرونها، وقيل: إنَّه كان من جهة المعنى، وهو جمل على غير ما قصد به واقتضاه، وهذا أمثل القولين، فإن اللفظ إذا تداولته الألسنة واشتهر، يصعب تبديله(١٠).

المبحث الثاني: أنواع الكلمة وأهميتها في القرآن الكريم

المطلب الأول: أنواع الكلمة في القرآن الكريم:

يقول الحق – جل وعلا – في الذكر الحكيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا

(١٠) المفردات: الراغب - مرجع سابق رقم ٥ - ص ٤٤٣.

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)} [إبراهيم: ٢٤-٢٦]

الكلمة نوعان كما أخبرنا بذلك الحق – جل وعلا – في الذكر الحكيم، هما: الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، أو بمعنى آخر كلمة الإيمان وكلمة الكفر، يقول فضيلة الإمام الطنطاوي في تفسيره: "والمعنى: ألم تر- أيها المخاطب- كيف اختار الله- تعالى- مثلًا، ووضعه في موضعه اللائق به، والمناسب له، وهذا المثل لكلمتي الإيمان والكفر، حيث شبه- سبحانه - الكلمة الطيبة وهي كلمة الإسلام، بالشجرة الطيبة، أي النافعة في جميع أحوالها، وهي النخلة.

ثم وصف- سبحانه- هذه الشجرة بصفات حسنة فقال: ﴿أَصْلُها ثابِتٌ﴾، أي: ضارب بعروقه في باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان، ﴿وَفَرْعُها﴾ أي: أعلاها وما امتد منها من أغصان، مشتق من الافتراع بمعنى الاعتلاء فِي السَّماءِ أي: في جهة السماء من حيث العلو والارتفاع، وهذا مما يزيد الشجرة جمالا وحسن منظر،

وبعد أن بين- سبحانه- مثال كلمة الإيمان، أتبعه بمثال كلمة الكفر فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي قبيحة لا نفع فيها، ولا خير يرجى منها، ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي: اقتلعت جثتها وهيئتها من فوق الأرض، لقرب عروقها وجذورها من سطحها.

يقال: اجتثثت الشيء اجتثاثًا، إذا اقتلعته واستأصلته، وهو افتعال من لفظ الجثة وهي ذات الشيء، وقوله: {ما لَها مِنْ قَرارٍ} تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن اجتثاث الشيء بسهولة، سببه عدم وجود أصل له، أي: ليس لها استقرار وثبات على الأرض، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء[(١١)].

وسبحان الله الذي له المثل الأعلى، فإن في هذه الآيات لدروس هامة وإشارات واضحة لمنْ يتدبر، فمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، مثل الصالح والطالح، ومثل الحق والضلال، ومثل الإيمان والكفر، فالكلمة الطيبة قد تكون سببًا في دخول صاحبها الجنة، وبالتالي تضعه في دائرة الرحمة الإلهية، والعكس صحيح، فالكلمة الخبيثة قد تكون سببًا في دخول صاحبها النار، وبالتالي تطرده خارج دائرة الرحمة الإلهية.

(١١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: فضيلة الإمام محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ج٧، ص ٥٤٩.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي -ﷺ- يقول: " إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب "(متفق عليه)

ويقول الحق – جل وعلا – في سورة فاطر: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠]، وهذا سنتناوله تفصيلًا مع ذكر أثر الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة على الفرد والمجتمع.

المطلب الثاني: أهمية الكلمة في القرآن الكريم وخصائصها

أولًا: أهمية الكلمة في القرآن الكريم:

يقول الحق – تبارك وتعالى – في محكم آياته: {مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]، في هذه الآية نري أهمية الكلمة ومكانتها عند الله – جل وعلا – حتى أنه – تعالى – جعل ملكيين لتسجيل كل كلمة يلفظها الإنسان صالحة أو طالحة، يقول الإمام الطنطاوي: " أكد- سبحانه- كل هذه المعاني بقوله: (ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) أى: ما يتكلم هذا الإنسان من كلام، وما يفعل من فعل، إلا ولديه ملك « رقيب » أى: حفيظ يكتب أقواله «عتيد "أى: مهيأ لذلك، حاضر عنده لا يفارقه. يقال: عتد الشيء - ككرم- عتادة وعتادًا، أى: حضر، فهو عتد وعتيد، ويتعدى بالهمزة وبالتضعيف، فيقال: أعتده صاحبه وعتّده، إذا هيأه وأعده.

والمراد أن الملكين اللذين أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله، كلاهما مراقب لأعمال الإنسان، حاضر لكتابتها، وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ) وقوله- سبحانه-: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وقوله- عز وجل-: (هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، وقال بعض العلماء ما ملخصه: وبعض العلماء يرى أن الملكين يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض.. لأن قوله- تعالى- مِنْ قَوْلٍ نكرة في سياق النفي فتعم كل قول.. " انتهى كلام الإمام طنطاوي.

إن للكلمة أهمية كبري في القرآن الكريم، فهي شطر الوعد الذي وعده الله – تبارك وتعالى – في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] يقول السعدي في تفسيره: "يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك، تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا {أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة" [(١٢)].

(١٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦ ه)، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ ه، ج ١ – ص ٧٤٨.

إن مصير الإنسان في الآخرة بالكلمة، كدخوله في الإسلام، وخروجه منه –والعياذ بالله - وبلوغه من رضوان الله أو سخطه، ولو لم يلق لها بالاً، كما جاء في الحديث الشريف: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم" (١٣).

ولننظر لأهمية الكلمة في القرآن الكريم، كيف ذكرها الله – جل وعلا – في آيات الذكر الحكيم، كما يلي:

أولًا: القول التوحيد والبراءة من الشرك وما يدعو إليه، قال – تعالى -: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: ٢٨]، قال البغوي في تفسيره: "(وجعلها) يعني هذه الكلمة، (كلمة باقية في عقبه) قال مجاهد وقتادة: يعني كلمة التوحيد وهي: " لا إله إلا الله "كلمة باقية في عقبه: في ذريته. قال قتادة: لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده. وقال القرظي: يعني: وجعل وصية إبراهيم التي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته، وهو قوله - عز وجل -: " ووصى بها إبراهيم بنيه "(البقرة ١٣٢)" (١٤).

ثانيًا: الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة وضرب المثل بهما كما تقدم.

ثالثًا: القول في دعوة أهل الكتاب لعبادة الله، قال – تعالى -: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤] يقول الطنطاوي في تفسيره: "فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات في هذه الآيات الكريمة أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يخلصوا الله العبادة فقال قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، والسواء: العدل والنصفة، أى قل يا محمد لأهل الكتاب: هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم، أو السواء: مصدر مستوية أى هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق" (١٥).

رابعًا: القول في التكليف بالأوامر والنواهي، قال – تعالى -: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤] يقول الطنطاوي في تفسيره: "وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بالكلمات التي اختبر الله بها نبيه إبراهيم- عليه السلام- على أقوال كثيرة، قال ابن جرير: ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو

(١٣)رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حفظ اللسان، حديث رقم ٦٤٧٨، صحيح البخاري ١٠١/٨.

(١٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: أبو محمد بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠ ه)، تحقيق: محمد عبد الله النمر –عثمان جمعة – سليمان مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ ه، ج ٤ – ص ١٥٧.

(١٥)التفسير الوسيط للقرآن الكريم: فضيلة الإمام محمد سيد طنطاوي – مرجع سابق رقم ٨.

إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له، ولعل أرجح الآراء في المراد بهذه الكلمات، أنها الأوامر التي كلفه الله بها، فأتى بها على أتم وجه. وقوله: " فَأَتَمَّهُنَّ "أى أتى بهن على الوجه الأكمل، وأداهن أداء تاما يليق - به- عليه السلام- ولذا مدحه الله بقوله: " وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ". وجيء بالفاء في {فَأَتَمَّهُنَّ} للدلالة على الفور والامتثال، وذلك من شدة العزم، وقوة اليقين، وفي إجمال القرآن لتلك الكلمات التي امتحن الله بها إبراهيم، وفي وصفه له بأنه أتمهن، إشعار بأنها من الأعمال التي لا ينهض بها الا ذو عزم قوى يتلقى أوامر ربه بحسن الطاعة وسرعة الامتثال".

خامسًا: القول في خروج المنافقين عن الإسلام بكلمة الكفر، قال –تعالى-: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ... } [التوبة: ٧٤] قال البغوي في تفسيره: "قوله تعالى: (ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام. وقيل: هي سب النبي ﷺ. وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير. وقيل: كلمة الكفر قولهم} لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)}المنافقين - ٨) (وهموا بما لم ينالوا (قال مجاهد: هم المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شر من الحمير، لكي لا يفشيه، وقيل: هم اثنا عشر رجلا من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء جبريل عليه السلام وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، فأرسل حذيفة لذلك" (١٦).

سادسًا: القول في العذاب، قال–تعالى-: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ} [الزمر: ١٩] يقول السعدي في تفسيره: "أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة" (١٧).

سابعًا: القول في نشر المحبة وحفظ المودة والألفة، وتحويل العدو إلى صديق، قال – تعالى -:: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]

يقول السعدي في تفسيره: "قول تعالى: } وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ{ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها} هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ {ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب،

(١٦) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: أبو محمد بن مسعود البغوي – مرجع سابق رقم (١١).

(١٧) تفسير السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مرجع سابق رقم ٩.

ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك، غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك، فَطِيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة} فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ { أي: كأنه قريب شفيق".

ومما سبق تبدو أهمية وخطورة الكلمة عند المشرع، وقد ظهر ذلك جليًا في الذكر الحكيم والسنة والنبوية المطهرة، وقد عني الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلمة التي تخرج من فم الإنسان لما لها من أثر عظيم وكبير على الفرد والمجتمع، فبكلمة يدخل الإنسان الإسلام، وبكلمة يخرج منه، وبكلمة يدخل الإنسان الجنة، وبكلمة يخرج منها، وبكلمة تحل المرأة على الإنسان، وبكلمة تحرم عليه، وبكلمة تقام أسر وتنهض مجتمعات وبكلمة تدمر وتهدم، فليتق الإنسان ربه فيما يخرج من فمه من كلام، لأن الكلمة إما أن تبلغ بالإنسان أعلى الدرجات وإما أن تهوي به في أسفل الدركات، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم)، وفي رواية أخرى: (يهوي بها في النار سبعين خريفا)" [(١٨)].

(١٨) سبق تخريجه.

ثانيًا: خصائص الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة في الكتاب والسنة:

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم. وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة" (متفق عليه)(١٩).

ـــ خصائص الكلمة الطيبة وفوائدها:

١- الكلمة الطيبة شعبة من شُعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه". (متفق عليه)(٢٠).

٢- الكلمة الطيبة سمة المؤمنين الصادقين والدعاة وشعارهم:

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

٣- الكلمة الطيبة صدقة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقةٌ، وتعين الرجلَ في دابته، فتحمله

(١٩)رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة، رقم الحديث ٦٩٨١ – ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم الحديث ٢٨٩.

(٢٠)رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم الحديث ٦٠١٨ – ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الضيف، رقم ٤٧، وكذلك المساجد ومواضع الصلاة رقم ٦٦٠، ورواه الإمام أحمد في مسنده، (٣ / ١٠٨).

عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقةٌ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة" (متفق عليه)(٢١).

٤ـ أنها تؤلف بين القلوب، وتصلح النفوس، وتذهب الحزن، وتزيل الغضب، وتشعر بالرضا والسعادة، لا سيما إذا رافقتها ابتسامة صادقة:

فعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "تبسُّمُك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيُك عن المنكر صدقة... ". (٢٢).

٥ـ أنها توافق الشرع الحنيف:

فتدعو إلى ما يُعزّز التوحيد، وينافي البدع والمنكرات، والشهوات والشبهات ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

٦ـ بها يكون اجتماع الكلمة، وتآلف القلوب:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فمما يتحقَّق به الردُّ الحسن: الكلمة الطيبة.

٧ـ والكلمة الطيبة انتصار على الشيطان:

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]؛ أي: وقل لعبادي المؤمنين يقولوا في تخاطُبِهم وتحاوُرِهم الكلامَ الحسن الطيب؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، ألقى الشيطان بينهم العداوة والفساد والخصام، إن الشيطان كان للإنسان عدوًّا ظاهرَ العداوة؛ فالشيطان حريص على إفساد ذات بيننا، قال ﷺ: "إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبدَه المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم" (رواه مسلم رقم ٢٨١٢)، والتحريش: الإفساد بينهم، فمن رد بالكلمة الطيبة أخزى الشيطان.

٨ـ وبالكلمة الطيبة تتحقق المغفرة:

(٢١)رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم، رقم ٤٧٢٨ – ورواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٩.

(٢٢) الجامع الكبير = سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) - تحقيق بشار عواد معروف - دار الغرب الإسلامي – بيروت – ١٩٩٨ م – أبواب البر والصلة – باب ما جاء في صنائع المعروف – رقم ١٩٥٦، وحكم الالباني: صحيح، الصحيحة (٥٧٢).

قال ﷺ: ((إن من موجبات المغفرة: بذل السلام، وحسن الكلام))[20] (٢٣).

٩ـ بها تكون النجاة من النار:

عن عديّ بن حاتم قال: ذكرَ رسول الله -ﷺ-النارَ فأعرض وأشاح، ثم قال: ((اتقوا النار))، ثم أعرض وأشاح حتى ظننَّا أنه كأنما ينظر إليها، ثم قال: ((اتقوا النار ولو بشق تمرةٍ، فمن لم يجد، فبكلمةٍ طيبة)) (متفق عليه)

١٠ـ الكلمة الطيبة سبب دخول الجنة:

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) قال: ((في الجنة غرفة يُرَى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها))، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: ((لمَن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام))(٢٤).

وعن المقدام بن شُرَيح عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنهم قال: قلت: يا رسولَ الله، حدثني بشيء يوجب لي الجنة، قال: ((موجبُ الجنة: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسنُ الكلام)) رواه الطبراني(٢٥).

والجزاء من جنس العمل، فلما كانت الكلمة الطيبة سجيَّة لهم، دخلوا الجنة فلم يسمعوا فيها إلا الطيِّب الذي لا يؤذيهم، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]؛ أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا؛ أي: غثًّا خاليًا عن المعنى، أو مشتملًا على معنى حقير أو ضعيف.

ولما كانت خمر الدنيا حاملةً على بذيء الكلام، قال تعالى في نعت خمر الآخرة: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣].

١١ـ تصعد إلى السماء:

فتفتَّح لها أبواب السماء، وتُقبل بإذن الله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠].
١٢ـ إنها من هداية الله وفضله للعبد:

(٢٣) الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (المتوفى: ١٤٢٠هـ): " صحيح الجامع الصغير وزياداته "، المكتب الإسلامي، لبنان ١٤٠٢هـ ط٣، ج١ – ص ٤٤٤.

(٢٤)أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري: " الترغيب والترهيب من الحديث الشريف"، دار الكتب العلمية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت ١٤١٧ه، ط١، ج٢-ص ٣٤، حديث رقم ١٣٩٤.

(٢٥)رواه الطبراني بإسنادين رواة أحدهما ثقات وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت والحاكم إلا أنهما قالا عليك بحسن الكلام وبذل الطعام وقال الحاكم صحيح ولا علة له (٢٦٩١)، ذكره الألباني في كتابه (صحيح الترغيب والترهيب)، كتاب الأدب وغيره – وورد في صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب إفشاء السلام وإطعام الطعام، رقم الحديث ٥٠٩.

قال تعالى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الحج: ٢٤].

١٣- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان:

انظر بماذا تجازى على كلمة تقولها في الذبِّ عن عرض أخيك المسلم؛ ففي الحديث: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: ((منْ رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة))(٢٦).

ـــ خصائص الكلمة الخبيثة وضررها:

أما الكلمة الخبيثة فهي تسبب الفرقة والتنافر بين أبناء المجتمع مما يهدد أمنهم وسلامتهم لذلك حرمها الإسلام فحرم الإسلام الغيبة والنميمة وقول الزور والكذب والجدال بالباطل والسب واللعان والشائعات وغير ذلك من تلك الآفات التي ابتليت بها الأمة، وأمر بحفظ اللسان عنها روى أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء)، وكان أنبياء الله ورسله رضوان الله عليهم حريصين على حفظ ألسنتهم من الكلمة الخبيثة،

روي أن عيسى عليه السلام مر بخنزير فقال له: انفذ بسلام، فقيل له أتقول هذا لخنزير؟ قال: نعم لأني أخاف أن ألعنه فيتعود لساني على النطق بالسوء. ألا ما أحوج مجتمعنا إلى أن تشيع فيه الكلمة الطيبة وأن يحفظ الإنسان لسانه عن قول السوء لما لذلك من أثر طيب على الفرد والمجتمع.

إن الغيبة والنميمة والبهتان والشتم واللعن والسخرية والاستهزاء من الكلمات الخبيثة التي حرمها الإسلام تحريمًا شديدًا، وشدد في الابتعاد عنها لما تزرع في المجتمع بذور الشقاق، وتبث فيه روح الفرقة، وتأجج بين أفراده نار العداوة، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي - ﷺ- قال)): إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا ((٢٧).

(٢٦)الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (المتوفى: ١٤٢٠هـ): " صحيح الجامع الصغير وزياداته " وقال الشيخ الألباني: (صحيح)، انظر: حديث رقم: ٦٢٦٢.

(٢٧)فتح الباري: الحافظ ابن حجر العسقلاني، » كتاب الأدب » باب ما يُنْهى عن التحاسد والتدابر وقوله تعالى ومن شر حاسد إذا حسد، حديث رقم ٦٠٦٤.

والكلمة السيئة نقص في الإيمان؛ عن عبدالله بن عمرو - قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هَجَر ما نهى الله عنه))؛ (متفق عليه)

وهي سبب لدخول النار؛ عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ- قال: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم))؛ رواه البخاري، وقد سبق ذكره.

ومن الكلمة السيئة والكلام الفاحش أن ترد الإساءة بأكثر منها؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: أتى النبيَّ - ﷺ- أناسٌ من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، قال: ((وعليكم))، قالت عائشة: قلت: بل عليكم السام والذَّام، فقال رسول الله - ﷺ-: ((يا عائشة، لا تكوني فاحشة))، فقالت: ما سمِعت ما قالوا؟ فقال: ((أوليس قد ردَدت عليهم الذي قالوا، قلت: وعليكم))، وفي رواية أنه قال لها: ((يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش والتفحُّش))[(٢٨)]، فالفحش: العدوان في الجواب.

كما أن الكلمة السيئة تعود على أهلها بالسوء والشر، قبل أن تعود على غيرهم وتؤثر في سواهم:

انظر ماذا قال اليهود ـ عليهم من الله ما يستحقُّون، وتعالى الله عما يقولون -: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وانظر ماذا قال الله لهم: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة: ٦٤].

المبحث الثالث: أثر الكلمة على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم.

المطلب الأول: أثر الكلمة الطيبة على الفرد والمجتمع في ضوء الذكر الحكيم.

إنّ الإسلام يسمو بالأمة التي رَضيته دينا - أفرادًا وجماعات - إلى أرقى مدارج الرقي، ويحفّزها لتدرك هذا الرقي عن طريق الخلق الفاضل بانتهاج سبيل المحبة والمودّة وحسن السلوك والمعاملة، والخير الأصيل لا يموت مهما زاحمه الشر، والطيب لا يصير خبيثًا مهما زاحمه الخبث، {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [إبراهيم: ٢٥].

إن للكلمة الطيبة كما أسلفنا فوائد جمة على للفرد ومن ثم المجتمع، لذا فهي تعود بالأثر النافع الطيب على الفرد وتهذيب أخلاقه قولًا وفعلًا، ومن آثارها المتعددة على الفرد:

ـ الكلمة الطيبة تُحبب الناس في صاحبها، يقول الحق – تبارك وتعالى – {.. وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ.. } [آل عمران: ١٥٩] يقول الإمام البغوي في تفسيره: "{ولو كنت فظا} يعني: جافيا سيئ الخلق قليل الاحتمال، {غليظ القلب} قال

(٢٨)صحيح مسلم « كتاب السلام » باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم رقم ٤٠٣٥.

الكلبي: فظا في القول غليظ القلب في الفعل، {لانفضوا من حولك}أي: لنفروا وتفرقوا عنك، يقال: فضضتهم فانفضوا أي فرقتهم فتفرقوا".] معالم التنزيل ٢/١٢٣ [، ولذلك فإنّ صاحب الكلمة الليّنة الطيّبة يجمع حوله الكثير من الأخوة والأصدقاء والأحباب، ويرغب في قربه كافة الناس، كونه مصدرًا للخير والتفاؤل، وبعيدًا كل البعد عن البغض والمشاكل والخلافات، وبذلك تنتشر المحبة بين أفراد المجتمع باللين والرحمة المتمثل في أقوالهم وأفعالهم، وهذا ما تخبرنا به الآية السابقة، ولنا في رسول الله – ﷺ– الأسوة الحسنة قولًا وفعلًا.

ـ الكلمة الطيبة يعود أثرها على صلاح أعمال المسلم وغفران ذنوبه، يقول الحق – تبارك وتعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.. } [الأحزاب: ٧٠] والقول السديد: هو القول الصادق الصحيح الخالي من كل انحراف عن الحق والصواب، أي يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وراقبوه وخافوه في كل ما تأتون وما تذرون، وفي كل ما تقولون وما تفعلون، وقولوا قولا كله الصدق والصواب، فإنكم إن فعلتم ذلك {يُصْلِحْ} الله- تعالى- {لَكُمْ أَعْمالَكُمْ} بأن يجعلها مقبولة عنده {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} التي فرطت منكم، بأن يمحوها عنكم ببركة استقامتكم في أقوالكم وأفعالكم.

ـ وأثر التعود على الكلمة الطيبة عنوان هداية لصاحبها، لقوله تعالى: {وهدوا إلى الطيب من القول.. }[الحج: ٢٤] أي ألهموا الكلام الطيب، وما كان الله – تعالى – ملهمهم إلا لهدايته لهم، وثوابًا من عنده سواء في الدنيا أو الآخرة على صلاحهم وطاعتهم له، وقد منحنا الله – تعالى - نعمة النطق بالكلمات من أجل أن نستعملها فيما يرضيه عز وجل وأن نسخرها في طاعته وأن نؤثر الكلمة الطيبة على ما سواها، وجعل سبحانه النطق بالكلمة الطيبة وتحريرها من علامة رضوانه، وامتن بها على عباده المؤمنين.

ــ الكلمة الطيبة نلمس أثرها في صلاح المجتمع، والتناصح بين أفراده من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما يحقق الخيرية لهذه الأمة إذ يقول الحق – تبارك وتعالى -: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}[آل عمران: ١١٠] ويتضح هنا مدح الله –تعالى- هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، ويقول الإمام الطنطاوي في تفسيره الوسيط: "فأنت ترى أن الخيرية للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق أصلين أساسيين:

أولهما: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهما سياج الدين، ولا يمكن أن يتحقق بنيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما، فهما من الأسباب التي استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل تركهما، فقد أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود قال: قال

رسول الله ﷺ: « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﷺ (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ. كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ ثم قال: «كلا والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذون على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا- ولتحملنه على اتباع الحق حملًا- أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم" (٢٩).

وثانيهما: الإيمان بالله- تعالى- وبجميع ما أمره الله- تعالى- بالإيمان به.

هذان هما الأمران اللذان يجب أن يتحققا لتكون هذه الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لأن الأمة التي تهمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا تؤمن بالله لا يمكن أن تكون خير أمة بل لا توصف بالخيرية قط، لأنه لا خير إلا في الفضائل والحق والعدل، ولا تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله وكثرة الدعاة إلى الخير والناهين عن الشر، ويكون لدعوتهم آثارها القوية التي تحيا معها الفضائل وتزول بها الرذائل ". (التفسير الوسيط ٢ / ٢١٢)

وكأن الكلمة الطيبة عنوان التراحم والتناصح بين أفراد المجتمع، مما يعزز المودة بينهم والتكاتف، وإشارة إلى الخلق القويم لدى الأفراد في المجتمع، وكأن بها ترتقي النفوس، وتسمو الأخلاق، فتزيد الوصال بين الناس بشهادة رب العباد في القرآن الكريم لخيرية هذه الأمة، إذا تحقق شرطا الخيرية.

ـ الكلمة الطيبة تعزز التراحم بين أفراد المجتمع، لقوله ـتعالى-: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦٣] أي أن الكلام الطيب الجميل في رد السائل عوضًا عن التصدق لسبب ما، وكذلك ستر ما يشتكي منه السائل خير عند الله – جل وعلا – من الصدقة المتبوعة بأذى أو ضرر، وفي هذا دعوة للتراحم بين أفراد المجتمع الواحد، وضرورة مساعدة الناس لبعضهم البعض وإن لم يكن بالمال، فليكن بالقول الطيب والدعاء، فهذا عند الله أكرم وأجل من الصدقة التي يتبعها أذى، كجرح مشاعر السائل أو الغير ومعايرته بالمسألة، والمشرع ما كتب للناس إلا الخير، وما دعاهم إلا للالتزام بتعاليمه وتجنب نواهيه قولًا وفعلًا، فالمسلم للمسلم حقًا كالبنيان المرصوص، وكسائر أعضاء الجسد الواحد، إذا اشتكى منها عضو تداعت له سائر

(٢٩)آبادي، محمد شمس الحق العظيم: " عون المعبود شرح سنن أبي داوود"، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق ـ ١٤١٥هـ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم ٤٣٣٦ – وجاء في رياض الصالحين، كتاب المقدمات، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم ١٩٦.

الأعضاء بالسهر والحمى، هكذا نكون إذا التزمنا القول الطيب بيننا وبين بعضنا البعض، بما يعود على قوة الترابط بين أفراد المجتمع.

يقول الإمام القرطبي في تفسيره: (الثانية: قوله تعالى {ومغفرة} المغفرة هنا: الستر للخلة وسوء حالة المحتاج، ومن هذا قول الأعرابي - وقد سأل قوما بكلام فصيح - فقال له قائل: ممن الرجل؟ فقال له: اللهم غفرا! سوء الاكتساب يمنع من الانتساب. وقيل: المعنى تجاوز عن السائل إذا ألح وأغلظ وجفى خير من التصدق عليه مع المن والأذى، قال معناه النقاش. وقال النحاس: هذا مشكل يبينه الإعراب{مغفرة} رفع بالابتداء والخبر خير من صدقة. والمعنى والله أعلم وفعل يؤدي إلى المغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، وتقديره في العربية وفعل مغفرة. ويجوز أن يكون مثل قولك: تفضل الله عليك أكبر من الصدقة التي تمن بها، أي غفران الله خير من صدقتكم هذه التي تمنون بها.

الثالثة: قوله تعالى {والله غني حليم {أخبر تعالى عن غناه المطلق أنه غني عن صدقة العباد، وإنما أمر بها ليثيبهم، وعن حلمه بأنه لا يعاجل بالعقوبة من من وآذى بصدقته)[٣٠].

ـ الكلمة الطيبة سلاح المسلم في الدعوة إلى الله، ودفاعه عنها، لقوله -تعالى-: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[فصلت: ٣٣] أي أنه لا أحد أحسن قولًا وأعظم منزلة، ممن دعا غيره إلى عبادة الله وطاعته، وهنا يتمثل أثر الكلمة الطيبة في الدعوة إلى الله – تعالى – عند الفرد المسلم، إذ أنها أداته العظيمة في هداية غيره لعبادة الله – جل وعلا – ولا تصح إلا عند إلتزامه بها، وتكمن في صدق القول وحسنه ولينه، وخير دليل على هذا هو قول المصطفى – ﷺ-: " المسلم منْ سلم المسلمون من لسانه ويده ". (متفق عليه).

ورسول الله – ﷺ– كان يدعو القبائل والأمم بالكلمة الطيبة، ولنا فيه الأسوة والقدوة، وما كان – صلوات ربي وسلامه عليه - بفظ ولا غليظ ولا صخوب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح.

ـ كما أن الكلمة الطيبة تساعد على الإقناع، وتزيد من تقبل الآخرين لأي أمر، وتعزز من الألفة ويقلّل من الجدال، وتعكس صورة رائعة عن الشخص، وعن خلقه ودينه وبلده، وتنشر مشاعر الألفة بين القلوب الغريبة، وتبعث طمأنينة في قلوب الأشخاص الّذين نراهم لأوّل مرة ويشعرون بغربة اتجاهنا.

---

(٣٠)القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ج ٣- ص ٣٠٩.

ــ تحوّل العدو إلى صديق، والخصام إلى صلح، والحرب إلى سلم، والحزن إلى فرح، والكآبة إلى بهجة، تثمر ثواباً وأجرًا للأشخاص لا ينساه الله، ويجزيهم به كل خير، وتندرج تحت خانة الأعمال الصالحة، يقول الحق – جل وعلا -: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[فصلت: ٣٤]

والدفع يكون بالقول الطيب أو بالفعل الصالح، والصبر على الإساءة بالقول أو بالفعل، ولذلك فإن خير الأنام – ﷺ– لم يقابل منْ أساؤوا إليه بالإساءة، بل كان يشفق عليهم جراء جهلهم، ويدعو الله – تعالى – لهم بالهداية، ولنا في سخرية أهل مكة منه، وتعرضهم له بالإساءة القولية والفعلية نموذج، ورغم ما فعلوه بخير الأنام – ﷺ– وبأصحابه وبرفقائه قبل الهجرة، إلا أنه عفا عنهم حين فتح مكة رغم أن الإسلام حينذاك كان في قوة، ولكن الإسلام فضّل الحلم على الغضب، والعفو عند المقدرة على الجزاء.

ــ إنّ الكلمة الطيّبة يُرد عليها بكلمة طيبة مثلها في الوضع الطبيعي، مما ينشر الود والاحترام بين كافة أفراد المجتمع، وهو نوع من أدب الحديث بين الناس، وينتج عنه مجتمعات حضاريّة راقية خالية من المشاحنات والتعصب والجهوية.

المطلب الثاني: أثر الكلمة الخبيثة على الفرد والمجتمع في ضوء الذكر الحكيم

يقول الحق – تبارك وتعالى -: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}[إبراهيم: ٢٦] قال السعدي في تفسيره: " ثم ذكر ضدها – يقصد الكلمة الطيبة - وهي كلمة الكفر وفروعها فقال:؛ { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ }المأكل والمطعم وهي: شجرة الحنظل ونحوها، } اجْتُثَّتْ }هذه الشجرة، } مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ }أي: من ثبوت فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره ".[تيسير الكريم الرحمن: ٤٢٥/١]

والكلمة الخبيثة مثل كلمة الكفر أو الكذب أو النفاق ليس لها أصل أو أساس عند المشرع، ولا يوجد لها أي أساس في الدين الحنيف، لأنها كما شبهها الرحمن – جل وعلا – في الآية السابقة كشجرة خبيثة ليس لها أصل ولا قرار، أي ليس لها جذور في الدين الحنيف ولا أصل، وليس لها أوراق يستظل بها الفرد حين الحاجة، أو ثمار يستفيد بها الخلق ويشبعون منها، ولذلك فإن الكلمة الخبيثة حذرنا منها رسولنا الكريم – صلوات ربي وسلامه عليه – كما سبق ذكره في الأحاديث السابقة، لأثرها السيء على الفرد والمجتمع، ومن أسوأ آثارها أنها تهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن استمر الإنسان عليها واعتادها، فإنه يُكتب عند الله – تعالى – على صفته هذه، كما بيّن لنا رسولنا الكريم في قوله – صلى الله عليه وسلم -: وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن

الفجور يهدي إلى النار، ومازال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا". (متفق عليه)(٣١).

وبين القرآن بإسهاب معاني الكلمة الخبيثة والخطورة التي تكمن وراءها لما لها من أثر سيء وسلبي على الفرد ومن ثم مجتمعه، وتحدث عن صور وأنماط متعددة للاستعمال المضر والشاذ للكلمة وعزز هذا الحديث بالنماذج والأمثلة المختلفة، وبالشكل الذي يوفر للإنسان دراية كاملة سواء بمواطن الصلاح والانحراف، ويجعله قادرا على حساب النتائج والآثار المحتملة على أي كلمة يطلقها.

واعتبرت الآيات القرآنية الشريفة مسألة الكذب، أي الأخبار المزيف عن الواقع وإعطاء السامع صورة مخالفة للحقيقة، أخطر أمراض الكلمة وأكثر استعمالها تخريبا في نفسية الفرد وحياة المجتمع.

فالكاذب يسعى لأن يصنع في ذهن السامع عالمًا يخالف عالم الواقع والحقيقة، ولاشيء أخطر على الحياة من أن يبتعد الإنسان عن فهم الحقائق ويقع في بقع الزيف والخداع، لأن ذلك يؤدي إلى انتشار عوامل التشكيك، وانعدام الثقة، وبالتالي هدم أهم مكونات الحياة وتكريس الباطل والظلم والفساد، ومن أجل ذلك حارب القرآن بلا هوادة الكلمة الكاذبة، وحمل بشدة على كل كذب وافتراء ونعت الكاذب بمختلف النعوت والصفات السلبية الخطيرة، كالكفر والتفريط والإسراف وكثرة الحلف لإقناع الآخرين بصدقه، الانضمام لحزب الشيطان بالإضافة إلى توضيح أخطار ومضار الكذب على الأفراد والجماعات.

يقول الحق - تعالى -:

ـ {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ} [النحل: ٦٢]

ـ {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: ١٨]

ـ {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: ٣]

---

(٣١)رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى " يأيها الذين آمنوا كونوا مع الصادقين.. "، حديث رقم ٦٠٩٤ – ورواه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والأداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق، حديث رقم ٢٦٠٧ - وفي سنن الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٧١)

ـ {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}[النحل: ١١٦]

وفي مواضع أخرى حذر القرآن الكريم من استعمال آخر للكلمة الخبيثة وقرنها برجس الوثنية، ويتجسد ذلك في قول الزور لأن الإسلام إنما جاء لإحقاق الحق وإظهاره وحفظه، وقول الزور طمس للحقيقة واعتداء على حقيقة الأشياء ونصرة للباطل وتضليل للإنسانية وإفساح المجال للمجرم كي يفلت من العذاب ومن تحمل مسؤولية عمله، قال ـ تعالى-

{ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}[الحج: ٣٠]

كذلك سلط القرآن الأضواء على مسألة البهتان باعتبارها إحدى ألوان الكلمة الخبيثة حيث تختفي وراء هذه الظاهرة الأخلاقية المريضة دوافع الكراهية والانتقام وإسقاط شخصية الآخرين بإشاعة التهم والأضاليل ضدهم، وقد فضح الله عزل وجل هذه الطائفة من الناس وطلب منهم الكف عن ذلك، إن كانوا من المؤمنين حقا الذين يمتثلون لأوامره وينتهون بنواهيه.

قال ـتعالى- {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)}[النور: ١٥-١٧]

وهنالك أيضا الإشاعات التي تعد أخطر أنواع الكلمة الخبيثة التي يستخدمها العدو وأكثر الأسلحة فتكًا وتخريبًا في الحياة الاجتماعية، خاصة في أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية وعند الحرب واشتعال المعارك حيث ينشط الجواسيس وأجهزة الدعاية المضادة في بث الإشاعات والدعايات المغرضة لتحطيم معنويات الأمة وإثارة القلق والشك والبلبلة في صفوف المسلمين.

لذا هدد القرآن الكريم المخربين ومروجي الإشاعات والأباطيل عندما حاول اليهود والمنافقون في المدينة النيل من المسلمين وإشاعة الخوف والاضطراب في صفوفهم بأنواع العقاب لأنهم معول تخريب وأداة إرباك يمكن أن تسبب للأمة الإسلامية خسائر وأضرار كبيرا جدا.

يقول الحق ـ تعالى- {لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا}[الأحزاب: ٦٠]

ويلفت القرآن الكريم الأنظار إلى عمليات التضليل والخداع التمويه عن طريق تضييع الكلمة وزخرفة القول والدخول إلى المخاطب من طرق ملتوية من أجل إغرائه

والإيقاع به باستخدام الكلمة الخبيثة ولكن بعد تحريرها وإضفاء الأصباغ إليها لإخفاء وجهها الحقيقي والإيحاء بسلامتها وصحتها.

وكثيرا ما فرح الساذج بهذه الكلمات وافتتنوا بأناقة مظهرها، فكانت لها أدوار هدامة وأثار تدميرية على الصعيدين العقائدي والأخلاقي وقد سمت النصوص القرآنية الشريفة بأعداء الأنبياء (عليهم السلام) بشياطين الإنس والجن باعتبار أنهم يمارسون عليمة إغواء الإنسان وتضليله بإقناعه بالكلمة المبطنة التي تحمل في ظاهرها الصلاح والفلاح وتستبطن في داخلها معاني الجهل والضلالة والانحراف.

يقول رب العزة – جل وعلا -: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)}[الأنعام: ١١٢- ١١٣]

وفي بعض الأحيان يشعر الإنسان بأن الكلمة التي يريد أن يقولها لا تلقى أذانًا صاغية وقبولًا من الناس، فعندئذ يلجأ إلى الأفراد الذين يشاركونه الرأي ويتقبلون كلماته وأفكاره فيتناجى معهم تحت ستار من العزلة والسرية فيتم الحوار الخفي وكثيرًا ما ينتج عنه اتفاقات وقرارات وأنشطة وفعاليات.

وقد أمر الله عز وجل أن يكون هذا الحوار وهذا التناجي مكرسًا لمجالات الخير والبناء ومقسمًا بالبر والتقوى والطاعة ومبتعدًا عن الكلمة الخبيثة المؤذية المشتملة على النفاق والتلون والرياء.

يقول الحق – تعالى- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[المجادلة: ٩]

وذم القرآن الكريم الكلمة الفارغة من المعنى الجوفاء التي لا فائدة منها، وسماها باللغو في الحديث ونزه الشخصية الإسلامية من الإسفاف والسقوط في هذه الهوة المزرية واعتبر أن إحدى صفات المؤمنين الأساسية هي التعالي عن اللغو والثرثرة والاستعمال العابث للكلمة وإضاعة الوقت وأراد لكل كلمة تصدر من الإنسان المؤمن هدفا ودلالة معينة، يقول - سبحانه وتعالى -: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)}[المؤمنون: ١-٣]

كذلك قوله – تعالى-: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}[الفرقان: ٧٢]

وكذلك قوله – تعالى-: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}[القصص: ٥٥]

هذه آثار الكلمة الخبيثة على الفرد وكذلك الجماعة أو المجتمع، والتي أخبرنا الله – تبارك وتعالى - بها في القرآن الكريم.

نتائج البحث وتوصياته:

الحمد لله رب العالمين الذي وفقنا بعدما علمنا وهدانا، وأكرمنا على سائر الخلق وأعطانا، فقد توصلت في ختام بحثي هذا إلى النتائج المرجوة منه، وتمثلت في معرفة مكانة الكلمة وأهميتها في ضوء القرآن الكريم، ومعرفة أنواعها وخصائصها وصولاً لتحقيق أهداف البحث، والمتمثلة في معرفة أثر الكلمة على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم، وكذلك معرفة فوائد الكلمة للفرد، فبالكلمة تبنى المجتمعات وتتكون الأمم، وبالكلمة تهدم وتُخرَب، ونوصي بالآتي:

ـ ضرورة تأسيس النشء المسلم على الكلام الطيب، حتى يشب عليه سويًّا مستقيمًا.

ـ الاهتمام بباب الكلمة الطيبة في الدين الحنيف في التعليم، وخاصة في المراحل المبكرة.

ـ الحث على الدعوة في سبيل الله وخاصة مع غير المسلمين باستخدام القول الطيب اللين، والاقتداء في ذلك بخير الأنام ـ ﷺ ـ.

ـ تكثيف البحث في سبل واجراءات غرس الفضيلة في أفراد المجتمع عن طريق توعيتهم بأهمية الكلمة ومكانتها عند المشرع.

ـ التوعية بخطورة اللسان ومسؤوليته عن باقي أعضاء الجسم.

ـ حصر النماذج المشرفة وطريقة استخدامها للكلمة الطيبة في الوقت المناسب، والموجودة في القرآن الكريم كمؤمن آل فرعون.

المراجع والمصادر:

(١) أبو العزم، عبد الغني: المعجم الغني – فهرسة وتنسيق فواز زكانة – نسخة الكترونية بتاريخ ربيع ثاني ١٤٣٤هـ

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت: ٧١١هـ): لسان العرب – دار صادر– بيروت – الطبعة الثالثة١٤١٤ هـ.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الفكر – ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

(٤) الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ): القاموس المحيط – تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

(٥) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ): المفردات في غريب القرآن – تحقيق صفوان عدنان الداودي - دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت – الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ

(٦) الدامغاني، الحسين بن محمد الدامغاني: اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن - قاموس القرآن - المحقق: عبد العزيز سيد الأهل - دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٨٠م.

(٧) طنطاوي، محمد سيد: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

(٨) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت: ١٣٧٦ هـ): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ.

(٩) البغوي، أبو محمد بن مسعود (ت: ٥١٠ هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن - تحقيق / محمد عبد الله النمر –عثمان جمعة – سليمان مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧هـ

(١٠) الجامع الكبير = سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ(- تحقيق بشار عواد معروف - دار الغرب الإسلامي – بيروت – ١٩٩٨ م.

(١١) الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (المتوفى: ١٤٢٠هـ): "صحيح الجامع الصغير وزياداته"، المكتب الإسلامي، لبنان ١٤٠٢هـ، ط٣

(١٢) أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري: "الترغيب والترهيب من الحديث الشريف"، دار الكتب العلمية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت ١٤١٧هـ، ط١.

(١٣) آبادي، محمد شمس الحق العظيم: "عون المعبود شرح سنن أبي داوود"، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق - ١٤١٥هـ.

(١٤)القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن - تحقيق/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.